العجز قـــوة

للاستاذ عبد المنعم خلاف

حينما أرى شيخوخة متهدمة فانية مدبرة الحياة تجرجر جسمها المتهالك كأنما تحمله حملا يبهر الأنفاس ويعيي الأوصال، في مزدحم طريق مكتظ بأجسام القادرين على الزحام من الرجال ذوي الألواح العريضة والأرجل الخفيفة والخطوات الماضية في خيلاء الشباب وطفور القوة وعزة القدرة على نيل الأشياء، وغرور الخدعة بالحياة، وقد احتدمت الحركة والجلبة ومضت «دواماتها» المنيفة بتلك الشيخوخة ترى بها الرائي وسط هذا العباب الزاخر حينئذ أشعر أن هذا العجز يقبض على قلبي بقوة غالبة تجيش لها نفسي وتستجيب لها استجابة لا أحسها في كثير من الأحيان التي يطالعني فيها مشهد من مشاهد القوة والاجتياح.

وحين أرى طفلتي الصغيرة تبدأ حياتها منذ أن فصلت عن حياة الرحم وكل سلاحها للعيش وآلاتها في الكفاح هو الصراخ واستنجاد بقوى من يحيطون بها من الوالدين والأقربين، وتلك الغمزات الخفية على قلبي الأم والأب، غمز الرحمة لهذا الضعف في هذا الجسم الصغير الضئيل الطريح الذي لا يملك دفع الذباب والنمال عن نفسه ولا جلب غذائه، ومع ذلك فجميع من في البيت وما فيه مسخر لرضاها والسهر على الدفاع عنها وجلب المسرة والمنفعة لها، أشعر كذلك أن العجز قوة يسخر لها جهاد الأقوياء، وأشرف ما في النفوس البشرية من أريحية كريمة هي التي تبني الاجتماع وتجمل الأخلاق وتعلو بمستوى الإنسان بل والحيوان.

ولقد أدركت من شيخوخة أمي رحمها الله في سنتيها الأخيرتين ما كان يثير في نفسي لونا من الحنان الغامر والأشفاق والحساسية التي تبعث الدمع الهادىء اللذيذ حين كنت أرى ذلك العجز الذي طرأ عليها بعد قوة ولكنه مع ذلك سلحها بقوى جميع من في البيت، وسخرهم لها يخدمونها في لهفة ويكتونها كل حاجاتها في رضا ويسألونها كذلك الرضا.

وعجز الشيخوخة أشد إثارة للرحمة والشعور والعاطفة من عجز الطفولة؛ لأنه يريك الهيكل البشري في حالة من تاريخ قوته، فتشعر أنك معه إزاء طلل لبناء عزيز كان عامرا فأضحى غامرا، تعفيه الرياح، وينال منه الإمساء والإصباح، ويدبر منه ما كان مقبلا.

وقديما بكى الشعر على الأطلال وبحث في أصباغها الناصلة وشواخصها الماثلة عن الأشباح التي كانت تعمرها والصور والظلال والأصوات والذكريات التي وقفت عليها والنفس إزاء عوامل الفناء أشد حساسية وإرهافا منها إزاء عوامل الحياة، لأن النفس من عالم الوجود فليست عوامل الحياة غريبة عليها غربة عوامل الفناء. وعوامل الحياة تمدها بالطمأنينة والأمل والشعور بالاستمرار والامتداد، أما عوامل الفناء فتأخذ منها الطمأنينة وتعطيها الرهبة والشعور بالنهاية وتقفها على حافة المجهول الذي مضى إلى هاويته كل ما كان ويمضي إليها كل ما هو كائن.

والعجز هو مدخل الإيمان وحجته الهادئة التي لاجدال معها لمنطق. فهو إن كان يثير أشرف ما في النفس وأعظمه أثرا في بناء روابط الاجتماع على أسس من الرحمة والعاطفة، فهو كذلك يثير أشرف ما فيها وأعظمه أثراً في بناء الإيمان وروابط الإنسان بالله على أسس من الفكر والادراك. وقفة واحدة مخلصة من فكر الإنسان الضئيل المحدود وسط هذا الكون الجبار الحافل بالقوى ذات الهول والاجتياح والرحابة والدوام، والأجرام السماوية ذات الأحجام والأرقام الفلكية، كافية لأن تطلق من صدر الإنسان آهة عميقة فيها الإقرار بالعجز والاستسلام والانكار لمزاعم القدرة والاستطالة، وصرخة وجلة دامية فيها طلب الملاذ والاحتماء في صدر كن رحيم حنون، وكنف قوي مأمون هو كنف « الذي » بنى هذا الكون الهائل الهائل من هذه القوى الجبارة العمياء المجنونة التي تسير في نظم ولجم تمسكها يد القهر فلا تفلت ولا تلتوي ولا تجمح!

وإذا كان غرور الحياة في بعض النفوس البشرية قد سوّل لها أن تزعم مزاعم الاستكبار والإنكار، فذلك لأنها نسيت عجزها وضعفها وسجنها في هذا الكون الذي لا يستطيع منه مهربا إذ دخلته على غير اختيار وستخرج منه على كره.

وهؤلاء الذين يثيرون بمنطقهم وجدلهم وزخرف قولهم الشغب والثورة على حكومة الكون، ويعييك أن تقنعهم بالحجة الفالجة والحق الدامغ، تستطيع أن تراهم يسرعون إلى الدخول فيما دخل إليه جمهور الناس من إيمان إذا ما ضربهم الزمان بالعجز وقيدهم بقيوده وطرحهم مطارح يرون فيها أنفسهم كائنات تافهة لا تملك لنفسها